

عني ويجزيك خيرا وينيلك مرامك. وهم بالسير الا ان صاحبنا لم يكده هذا الدعاء يصل الى سمته حتى شعر بارتياح شديد وبعيل الى الاكثار من محادثة هذا الشيخ الغريب . فاستوقفه قائلا. يا هذا اراك تعبنا والمسافة بيننا وبين المدينة قريبة لا تتطلب جهد السير. فاجلس ههنا قليلا لنتحدث فالكان جميل والهواء عليل وخذ هذه قطعة بقرشين اخرى وهذه سيجاره فدخنها فاخذ الشيخ القرشين والسيجاره وشكر وجلس

## — الفصل الثاني —

بدء الحديث

بعد ان استراح شيخنا قليلا بادره الشاب بالسؤال قائلا. من أين أنت يا هذا وما اسمك وإلى أين قاصد؟ فاجاب الشيخ وقال. اما من أين أنا فاني لا اعرف لي وطنا مخصوصا أعيش ههنا وههنا اطوي الفيافي والقفار وازور المدن والقرى متنقلا من مكان إلى مكان في أرض الله الواسعة ليس لي مقصد سوى البحث والتنقيب اراقب الطبيعة واستجلبها لتكون لعمري اهتدي إلى سر وجودي وسر الوجود فادعني

ان شئت باحثا . فاكبر الشاب هذا الجواب وتبين له ان هذا الشيخ الذي ظنه اولا أحد الدراويش المتسولين ليس هو بالرجل العادي بل ان هذا الجسم الحقير المظهر يحوي نفساً كبيرة وهذا الرأس العاري المعفر بالفبار فيه عقل راجح عظيم ربما قل وجوده في أعظم الجامعات وسر كثيراً بسنوح هذه الفرصة التي أقامها له القدر عفوا لعلة يستفيد منه بما يشفي غلبه حيث ان غاية هذا الشيخ الباحث هي كما بدا من جوابه نفس الغاية التي يصبو اليها ويسمى ورائها . فقال له والى أية نتيجة وصلت يا صاح لعلك توفقت في اجابتك ومراقباتك الى أمر حاسم تهديني اليه لاني وان اختلفت معك مظهراً وعيشة فقائبي هي نفس الغاية التي سمعت وتسمى أنت اليها فبالله عليك افدني وزدني افادة وايضاحاً فحدّق الشيخ فيه نظره كمن يريد أن يخترق أعماق افكاره ليرى حقيقة أمره هل صحيح ما يريد هذا الشاب أو هل سؤاله هذا هو من باب الازدراء حيث ان هذا الامر قليل من يبحث فيه من الناس وأقل منه أيضاً من يعيره من الاهمية التي يجب ان تكون له . وبعد أن صعد بصره فيه مراراً

وصوبه وتحقق منه الجهد أبرقت عيناه سروراً وبانت على وجهه علامات الارتياح فاجابه وقال :

يا بني . ان البحث عن الحقيقة يجب أن يكون غاية كل عاقل ومفكر حتى اذا ما وصل اليها أو الى ما يدانيها سار معها أو مع ما يكون قد ظهر له منها موقفاً أعماله مع سننها حيث ان السعادة الحقيقية والراحة التامة هي فيها ومعها .

لقد مررت بك الآن مرة وثانية دون أن تنتبه الي فرايتك غارقاً في تأملاتك فاستلقت حالتك نظري وشعرت بميل اليك لم أعرف له أو لا سبباً ولكن لم البث أن ذكرت ما قيل « ان الارواح جنود مجنودة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف » لذا وقفت اخيراً حيث رأيتني قادمًا محذراً بك النظر مفكراً واتيت بحركة تنبّهت انت اليها فبهت الشاب لهذا وعرف حينئذ سر الانزعاج الخفي الذي شعر به قبل أن يرى الشيخ

لقد ولدت يا بني على ما قيل لي من ابوين صالحين لم اعرفهما لانهما ماتا قبل أن أبلغ الرابعة من العمر فريت يتما تتلاعب

في أيدي الاغراب الى أن بلغت العاشرة . ففي ذات يوم  
بينما كنت اللعب مع أحد أولاد الجيران ونالعب كلبا صغيرا  
فركض ذهابا وايابا والكلب يتبعنا متعبا اذ دست على غير  
انتباه وقصد على رجل صاحبي فآلمه ذلك فأخذي بكفي ويصرخ  
وقام واطمني وجاء اخوه وأبوه وأشبماني ضربا ولسكا . ولما  
كنت يتما وحيدا فقميرالم اراحداً يشفع لي بل أن الذين  
حضروا أخذوا جميعهم يلوموني ويعنفوني فألمني ظلمهم اكثر  
من ضربهم وتأنيدهم ولم أزل لليوم أذكر هذه الحادثة التي  
كانت السبب فيما أنا فيه وعليه لاني عندما تخلصت منهم  
جئت الى الكلب الصغير فحملته وسرت هائما على وجهي  
باكيا شاكيا ساخطا فببت تلك الليلة جائعا في احدى المغائر  
وفي صباح اليوم التالي قمت مبكراً أهمل كلبى أبحت عن شيء  
نقعات به فأبصرت من بعيد راعيا آتيا مع قطيع كبير من  
الغنم فركضت اليه وقبلت يديه وطلبت منه قطعة خبز لا كلها  
مع كلبى ففش في وجهي وبش وسألني الى أين أقصد ومن  
أين أنا ومن أنا فأخبرته بجميع قصتي فرق قلبه لي وفتح جرابه  
وأعطاني رغيفا وأمساك أحدى التماج وحلب منها قليلا من

اللبن وسقى كلبى فأكلت الرغيف واطعمت أيضا منه  
الكلاب وفرحت جدا وأنست بهذا الراعي وقت الى يده  
مرة أخرى اقبلها وأردت متابعة السير فاستوقفني وقال لي  
أن أبقى معه طول النهار وفي المساء يأخذني معه الى الدير  
حيث أن هذا القطيع هو لأحد الاديار وهكذا كان فني  
المساء جئنا الى الدير وبعد أن أدخل الغنم الحظيرة ذهب وكلم  
أحد الرهبان فجاء الي وأخذني بيده الى الرئيس فسأني عن  
قصتي فأخبرته بها من أولها الى آخرها فسكت قليلا وفكر  
ثم ضمني الى صدره وقبلاني وقال لي يا بني اعلم أن الله سبحانه  
وتعالى قد سمع لك بهذا الشر كي ينتج لك منه خيرا كما أن  
هذا الالم الذي نالك من ضرب هؤلاء الناس لك ، لربما  
كان قصاصا عما آلت به كلبك ولكن لا بأس من هذا  
فالنتيجة هي على كل حال خير لك فاني أقبلك هنا وستكون  
في النهار مع الراعي تساعد على رعاية ومراقبة القطيع وفي  
المساء سأمر أحد الأخوة بأن يعلمك أهول القراءة وقواعد  
الدين ففرحت جدا جدا وشعرت بسرور داخلي وارتياح  
عظيم فقبلت يدي الرئيس وشكرت له هذا الصنيع. وهكذا

بقيت في خدمة الدير اثنتي عشر سنة أذهب في صباح كل يوم مع صديقي ومخلصي الراعي بطرس يصحبنا كابي الامين بليل نرعى الغنم وفي المساء نعود بها وبعد العشاء كنت أذهب أولاً في السني الاولى الى معلمي الراهب يوحنا اتلقى عليه أصول القراءة والكتابة وأمور الدين وبعد أن اتقنت هذه كلها كنت اختلي إلى مكتبة الدير أطالع الكتب فيها الى قرب نصف الليل محاولاً فهم ما فيها وتطبيقه على ما كنت أشاهده أو أسمعه أو يحول بخاطري وكنت أكثر الحديث مع الرهبان ومع بطرس مستفهما عن كل شيء خصوصاً مع صديقي هذا الاخير حيث كان الوقت متسعاً لنا وأماننا من الطبيعة كتاب لا نهاية له نأخذ عنه دروسنا ونروض الفكر على ما كان يبدو لنا من الأسرار .  
فحماً يابني أن الطبيعة هي أعظم أستاذ يعطي دروسه بسخا وعن ينبوع لا ينضب لكل من يسترشد به ويأتي اليه يستنير بنبراسه فالدارس على الطبيعة الآخذ عنها حكمته وعامه يكون حقيقة حكماً عالماً فينفتح أمامه كتاب الكون يقرأ فيه كما تقرأ أنت في صحيفة الاخبار بشرط أن

يوأجهها بأكلها ومن كل الوجوه وليس من جهة أو من  
بعض الجهات

ففي أحد الأيام بينما كنت مع بطرس نزعني التقطيع  
على حسب المعتاد ولبيل الكلب الأمين يركض الى هنا والى  
هناك مراقبا حارسا لاحظت على بطرس آثار ألم يكافحه  
ويريد ان يتغلب عليه ويخفيه عني فسألته مالك يا صاح فاني  
أرى على وجهك وفي حالتك ما يدلني على انك تتألم. فبماذا  
تشعر قل لي لعلني استطيع ان افيدك بشيء فشكرني وقال  
صحيح ما لاحظت فاني طول الليلة الماضية وانا على غير  
ما بوام ولكنني عند الصباح انست في بعض التحسن فقامت  
كالعادة ولكن الآن طاودني الألم بشدة لا يمكنني من متابعة  
السير فبات يدك ولفجلس تحت هذه الشجرة القريبة ففعلت  
وبعد ان اجالسة ذهبت الى بعض الآبار واستقيت دلو ماء أتيت به  
به ففسلت وجهه ويديه ورجليه فنام قليلا ولما استيقظ كان  
قد استراح بعض الراحة وهذا الألم نوعا ما ولكنه لم يلبث  
ان عاوده حينئذ اشرت عليه بالرجوع بالغنم الى الدير فقبل  
ورجعنا وعند عودتنا اخبرت الرئيس والرهبان بالامر

فحضروا الى غرفته وسقيناه بعض العقاقير وعالجناه على قدر  
الامكان ولكن لم يصبح الصباح الا وكان صاحبي ومنقذي  
بطرس قد فارق الحياة فبكيناه جميعاً بدموع حارة وبعد  
الصلاة عليه واريناه التراب في مقبرة الدير اما بلبل فان حزنه  
قد فاق حزننا جميعاً فانه عند مارافقنا الى المقبرة ورأى ما حل  
بفقيدنا انقطع عن الأكل وذهب عنا واختفى وبعد بضعة  
أيام وجدناه ميتاً على قبر بطرس وهكذا فقدت رفيقي  
واصبحت وحيداً مرة اخرى عندئذ اشتد بي الحزن وصفرت  
في عيني الحياة ولم أعد اطيع القيام في الدير فاستأذنت الرئيس  
وودعت الرهبان والاسى ملء القلب واخذت هذه العصا  
وهذا الجراب وهما من مخلفات بطرس وسرت هاتماً على  
وجهي من تلك الساعة الى الآن حيث تراني معك . فتأثر  
الشاب من هذا الحديث ونظر الى الشيخ نظرة اشفاق كأنه  
يشاركه في كل ما حل به من المصائب وود لو ساعدته الظروف  
ليكون معه دائماً ملازماً كما كان هو فيما مضى مع بطرس .  
ولما كان الوقت قد مضى وقد تأخر عن ميعاد رجوعه الى  
منزله دعا الشيخ الى المبيت عنده كي يتابع الحديث فاعتذر

الشيخ عن قبول الدعوة بكل لطف ووعده باللقاء في الغد في المحل ذاته فتفارقا على أمل المواجهة في الغد يفكر كل في صاحبه كأنها يعرفان بعضهما من سنين حيث ان هذه البرهة الوجيزة التي قضياها سويا كانت كافية لتمكين عرى التعارف لا بل الصداقة بينهما ولاغرو فان هذا الامر يكثر حدوثه جداً بين الناس وحتى بين الحيوانات عند تجانس الدم والروح

### — الفصل الثالث —

هل يوجد خير أو شر في الحقيقة ؟

أم ان ما نظنه خيراً لنا هو شر للغير والعكس بالعكس

في اليوم التالي في الوقت المعين اقبل صاحبنا الشاب نجيب وجلس على المقعد حسب المعتاد ولم تمض برهة قصيرة حتى حضر شيخنا وبعد تبادل التحية والسلام قال له نجيب والله يا شيخني اني لم اذق مرارة الانتظار مثل الليلة فقد كانت كل دقيقة منها بيوم وكل ساعة بشهر فتبسم الشيخ وقال وهذا ما كان عندي أيضاً ولنعد الآن إلى الحديث من سياق كلامي لك أمس يتضح أنني تركت الديور